سومر

الجزء الاول والثاني ـ المجلد السادس والاربعون

الشكل والمضمون

للعناصر العمارية في الدور التراثية

سليمة عبدالرسول / اختصاصي آثار

نماذج من الزخارف ذات الاشكال المختلفة على الاواني الفخارية من عصر حلف نحو (٥) الاف سنة ق.م.

شكل (١)

ان اقدم واول الاشكال البنائية لدور السكن في العراق ، كما يخبرنا بذلك رجال الاثار ، لم تكن اكثر من مجموعة من الغرف الملاصقة لبعضها ، والتي تشرف او تحيط بفناء مكشوف ، حققت الغرض الوظيفي فقط لدور السكن ، فهي غرف مضلعة منتظمة الشكل او غير منتظمة ، يأوي اليها الانسان في نهاية يومه الشاق من اعمال مضنية في الزراعة او الصيد او بعض

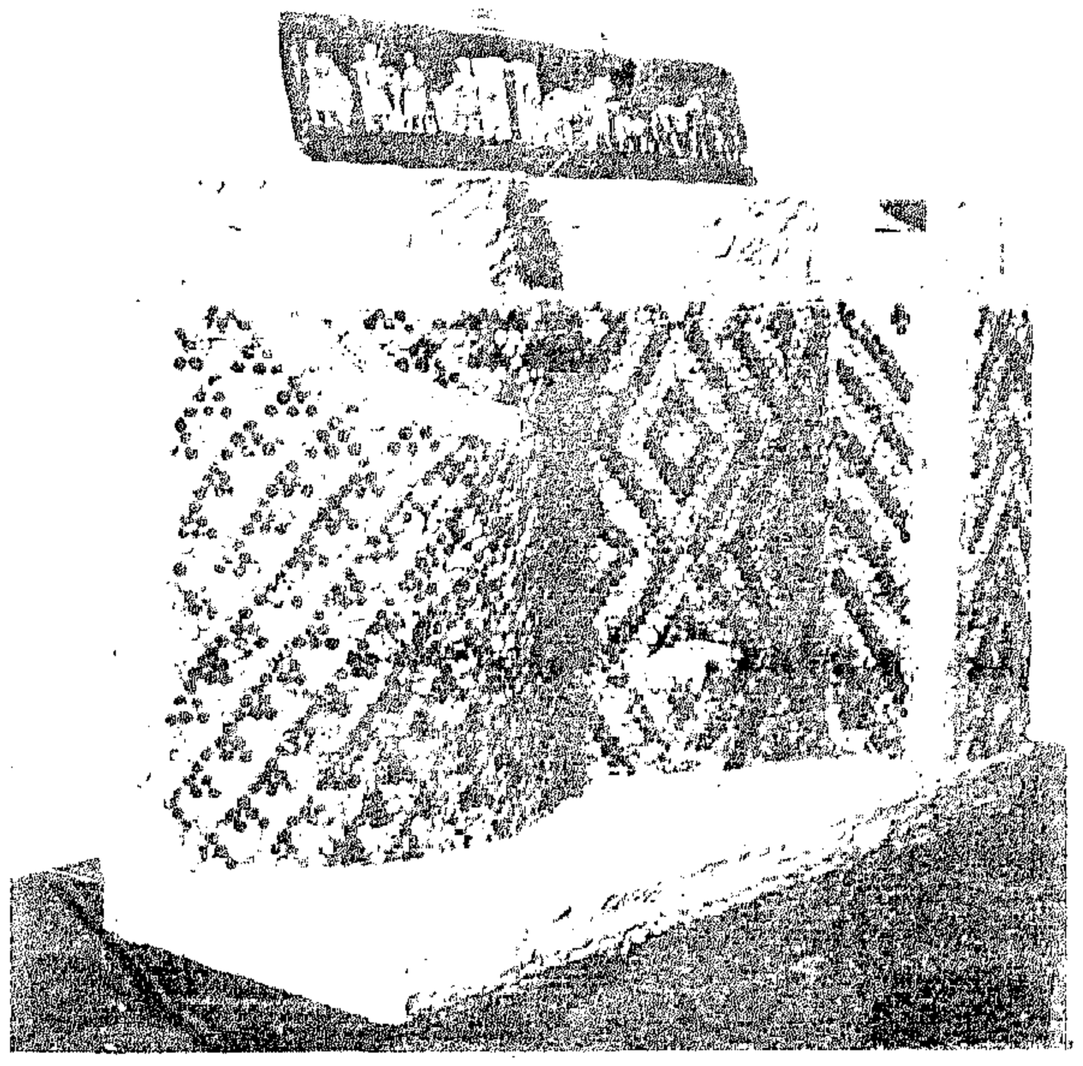

صورة رقم (١)

الحرف . ونادراً ما كان الانسان القديم يجد فرصة للراحة والتأمل والاسترخاء ، بسبب طبيعة الاعمال وبدائية ادوات الانتاج ، وبذلك كان يصرف النهار بطوله في العمل ويلوذ ببيته بعد الغروب ، ليجد فرصة للنوم وتجديد قواه العضلية تهيئة ليوم طويل اخر .

ومع تطور الانسان في عقله وفي سيطرته على الطبيعة والبيئة وتطوير ادوات عمله ، تحقق له انتاج اوفر بساعات عمل اقل ، واخذ يصرف بعض ساعات فراغه في التأمل والتفكير ، كما اصبحت علاقته بالمسكن اوثق من قبل ، ويبقى الانسان مشدوداً الى مجموعة من العناصر ذات المناشىء الطبيعية المستمدة من بيئته ، والتي تترك اثراً كبيراً في نفسه وتبعث عنده النشوة والسرور والفرح والهدوء وراحة الاعصاب ، ومنها اشكال النباتات واوراقها وأورادها وثمارها ، واشكال الطيور وبعض الحيوانات او التكوينات الهندسية المتماثلة والمتقابلة حيث كان اول ظهورها على الاواني الفخارية التي استعملها الانسان بكثرة في حياته اليومية ، منذ ما يقرب من سبعة الاف سنة ماضية[1] .

فالاناء الفخاري يخدم الغرض الوظيفي الذي صنع من اجله ، ولكنه في حالة زخرفته باشكال هندسية اونباتية ، يهيىء الاجواء النفسية الملائمة والمبهجة عند استخدامه ، هذا مع الاعتراف بان بعض الاشكال الزخرفية على الاواني الفخارية تضمنت مدلولات دينية او طقوسية ، وهي بذلك حققت غرضاً اضافياً ، وسيلته الزخرفة يضاف الى الغرض الوظيفي . انظر الشكل (١) .

اما اقدم الاشكال الزخرفية في المباني فتكررت في ابنية المعابد ، ويبدو ان تكاليف إتيانها الباهظة حصرها في الابنية الدينية التي كانت جميع الجهود تتظافر عند بنائها . وكشفت لنا اعمال التنقيب في الوركاء عن واجهة معبد زينت باشكال مثلثات ومعينات بالوان مختلفة ، تزيد من قوة الجذب الجمالية لهذا البناء[2] انظر الصورة رقم (١)

وتكشف لنا نماذج العمارة القديمة ان التحليات العمارية سواء كانت من خلال تكوينات بنائية او تطعيم زخرفي مركب في مادة البناء او احاطة جوانب البناء بعناصر زخرفية وفنية فانها جميعاً اصبحت سبلاً انسانية عامة لتحقيق اعلى المستويات الجمالية في الابنية .

وننتقل من حدود الابعاد الزمنية القديمة للنتاج العماري ، الى فترات قريبة جداً من وقتنا الحاضر في استعراض للقيم والعناصر العمارية ، لنتابع تواصل العطاء الحضاري في العراق ونجاح العراقيين في تحقيق انسجام ناجح بين الشكل والمضمون واقصد بذلك الناحية الوظيفية والجمالية للعناصر العمارية في الدور التراثية .

فأهم ما تكشفه لنا العمارة التراثية بغض النظر عن التخطيط ، هو التآلف والانسجام المتكاملان بين الشكل والمضمون في العناصر العمارية ، وهي في نظرنا من ابرز المزايا التي تتصف بها الابنية التراثية ، ونجد ابرز تمثيلاتها في تصفيف الاجر في الواجهات او السقوف بتشكيلات مختلفة ، ومثل ذلك في الاقسام الخشبية من المبنى سواء كانت في الواجهات او الشبابيك او الابواب او الاعمدة ، فان المعمار العراقي لم يكتف باستخدام هذه الاقسام في كتلة البناء وظيفياً ،

(1) Goff , Bearriec Laura, Symbols of Prehistoric Mesopotamia, New Haven and London, Yale University press 1963.

(٢) الواجهة معروضة في القاعة السومرية من المتحف العراقي انظر بارو اندريه، شومر فنونها وحضارتها، ترجمة د. عيسى سلمان سليم طه

بل عمد من خلال تصفيفها او زخرفتها او تطعيمها بالزجاج الملون الى تحقيق غاية زخرفية تشكل بدورها ميزة بارزة في الابنية التراثية ، اضافة الى ميزة تفاعل المبنى من خلال مخططة ومواد بنائه وعناصر عمارته ايجابياً مع معطيات المناخ والبيئة المحلية .

فالدور التراثية مدخل ومجاز وصحن مكشوف تحيطه الغرف التي تفصلها عن الساحة شرفات مسقفة (طارمة) وقد يتكرر نفس التخطيط في الطابق الاول مع بروز مساحة بناء الطابق الاول الى خارج مساحة البناء الاصلية (الارضي) حيث تتم الاستفادة من المساحة المضافة في توسيع حجم الغرف وايجاد مجالات للتهوية والاضاءة من خلال عناصر بنائية يصطلح عليها بالشناشيل[٣] ان هذا التخطيط يجققه بناء يعني بكل وضوح الجمود والسكون والرتابة والملل لا غير ، وهو جانب وظيفي بحت من البناء ، رفضته الدور التراثية بشكل قاطع وتجاوزته الى صيغ من التآلف بين التخطيط والبناء وبين عناصر عمارية بعثت كل مستلزمات الحياة والحركة والجمال في المساكن التراثية ، أبقتها نابضة بالحياة لالاف السنين ولا تزال تأثيراتها فاعلة الى وقتنا الحاضر .

فقد طعمت الدور التراثية وبشكل ينسجم تماماً مع الجانب الوظيفي للبناء ، بمجموعة فائقة التنوع من الاشكال الزخرفية والفنية ، ولم تهمل عنصراً يمكن توظيفه جمالياً سواء كان في رصف الاجر او الالواح الخشبية أوزخرفة الشبابيك والابواب، او تلوين الجدران والسقوف، او تبليط الارضيات باسلوب رصف معين، او في تكوينات بنائية كالاقواس واشكال العقود والدعامات .

وهكذا حيثما امكن تحوير العنصر البنائي الى واجهة عمارية يحقق جانبا جماليا يتآلف مع الاقسام الزخرفية الاخرى التي نجدها قائمة في كل ركن من البناء، من الخارج والداخل، في القاعات والغرف والشرفات، وحتى في رصف تباليط الارضيات، أي عندما ينسجم ويتآلف الشكل والمضمون بهذه الصورة الرائعة والمتقدمة، يتحقق اعلى مستوى في إنجاز ذلك العنصر الحضاري، ويكون مدعاة لديمومته وحيويته لفترات زمنية طويلة .

---

(٣) انظر ـ سليمة عبد الرسول ـ المباني التراثية في بغداد، وزارة الثقافة والاعلام /المؤسسة العامة للآثار والتراث، سنة ١٩٨٧ ص ٢٤ حول عناصر التصميم الاساسي للبيت التراثي.

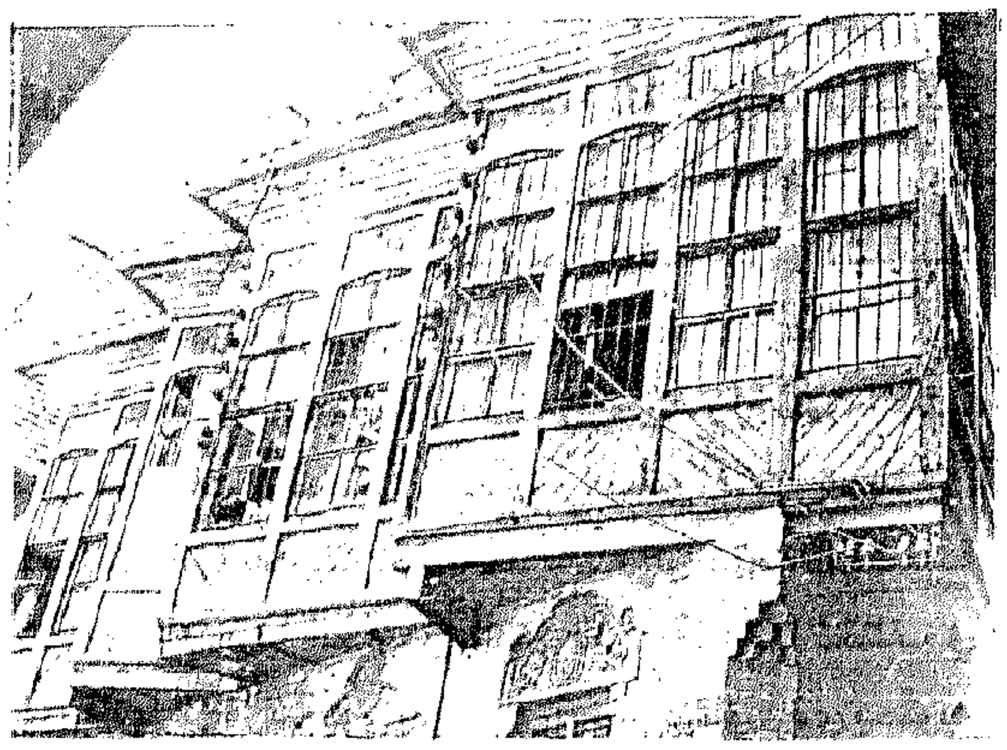

صورة رقم (٢) شناشيل خشبية

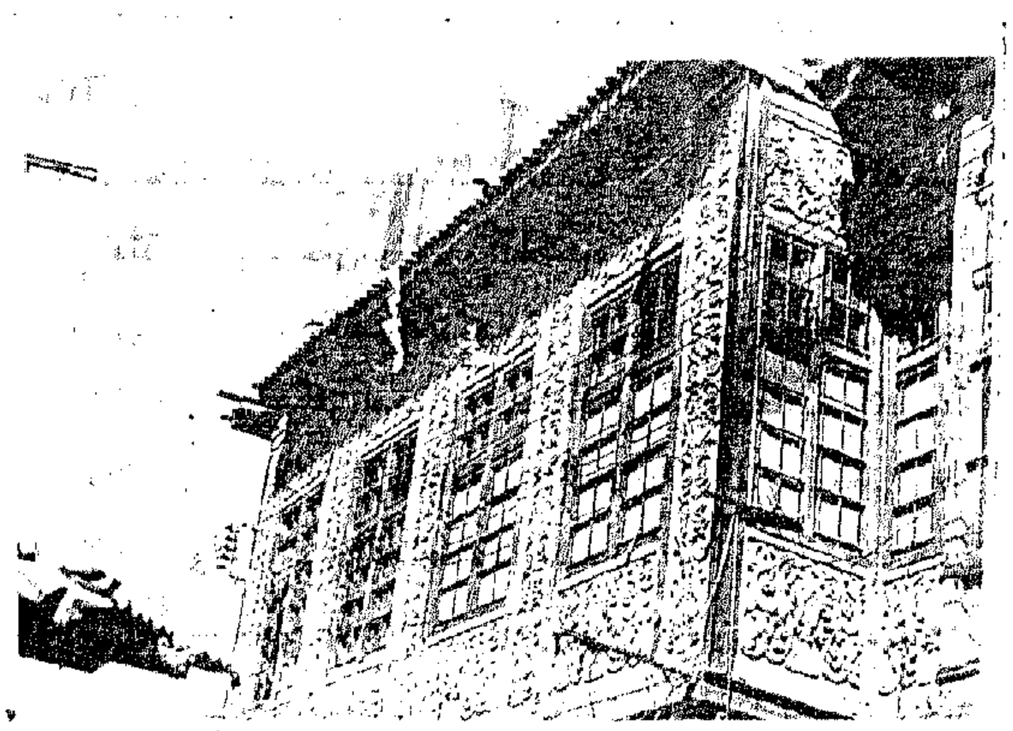

صورة رقم (٣) واجهة خارجية مزخرفة

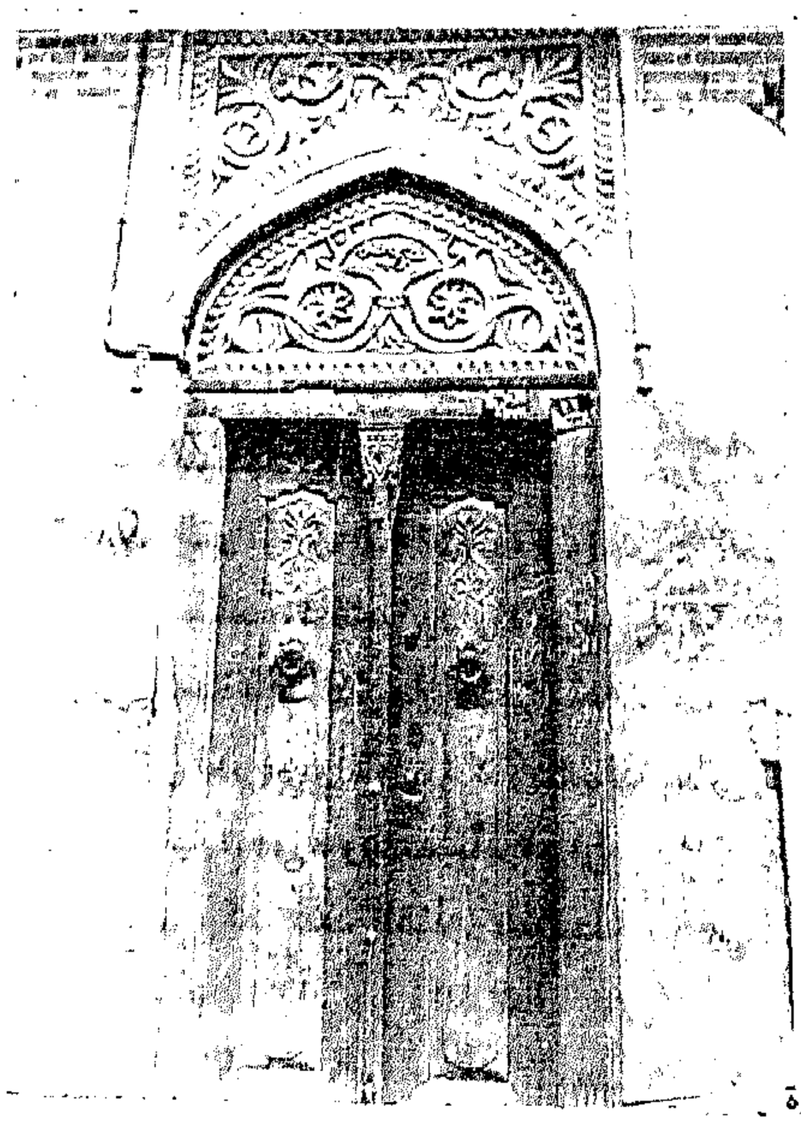

صورة رقم (٤) باب خشبي مزخرف تعلوه كتيبة اجرية مزخرفة

ان البيت التراثي النموذجي قطعة فنية متكاملة في جميع قسامه وجوانبه، من الخارج والداخل، فيما يحيط فناؤه، وما تزخر به غرفه وشرفاته. ان مجموعة الشناشيل والشبابيك والابواب وما تزدان بها من اشكال زخرفية تضفي على الشارع او الزقاق المسحة الجمالية الآسرة دونما رتابة او تكرار، مثلما تتماثل مزروعات الحديقة في عنصرها النباتي، لكنها تختلف في حجمها والوانها وطريقة تصنيفها، كذلك الواجهات الخشبية والاجرية والحجرية الخارجية للدور التراثية، فانها تختلف في موضوعاتها الزخرفية، ويزيد جمال الدار والزقاق الذي يحتويه واجهة المدخل التي تتوجها عناصر زخرفية جصية او آجرية او خشبية او حجرية، ومنها ما يحمل كتابات رصفت باسلوب فني رائع (انظر الصور ٢، ٣، ٤، ٥، ٦)

وبعد اجتياز المدخل يجد المرء نفسه في مجاز تفنن المعمار التراثي بتقنيته بالجص والآجر المهندم حيث تلاعب في رصفه باسلوب زخرفي رائع. اضافة لتحليته بحلى زخرفية من قطع آجرية اخرى ترتفع عن مستواه بهيئة اشكال معينة آجرية تذكرنا باشكال المعينات في السقوف الخشبية التي سنأتي على ذكرها لاحقا. واحيانا يرتقد سقف المجاز بهيئة قباب منخفضة يستند في الاركان على عنصر عماري زخرفي يتكون من مقرنصات آجرية، او ان يزين السقف كله بمقرنصات ملفتة للنظر. وعلى العموم فان زينة المجاز وزخرفته تتناسب مع عمارة وزخرفة البيت انظر الصور ٧، ٨.

وبعد اجتياز المجاز الذي يفصل ما بين المدخل والفناء، نجد انفسنا وسط فناء محاط بآيات العمل الفني المبدع من كل جانب، ولم يهمل المعمار التراثي حتى رصف ارضية الدار فأحاطها بمستوى إبداعي كشف عن نفسه من اسلوب رصف الآجر على اركانه او زواياه ، وهو الاسلوب الذي يعرف حرفيا بالاسلوب الشيطاني، او تم تبليطها ببلاطات ذات عناصر زخرفية ملونة.

ويغرق المعمار التراثي في التعامل مع الواجهات الفنية لكل المعالم المطلة على الساحة، فالشبابيك والابواب وسقوف شرفات الطابق الاول والاعمدة ذات التيجان المختلفة والحافات البنائية الفاصلة بين الطابق الارضي والاول، تزدان كلها باعمال زخرفية، قوامها اشكال نباتية محورة وهندسية، او ان يتداخل الشكل الهندسي مع النباتي. كما عمد الفنان لاستحداث اشكال فنية تسبح في ظلال الاشكال الهندسية والنباتية.

وحيثما يتعذر استخدام الواجهات الخشبية المزخرفة، نصادف رصفا للآجر او حفرا بالحجر والجص والطابوق،

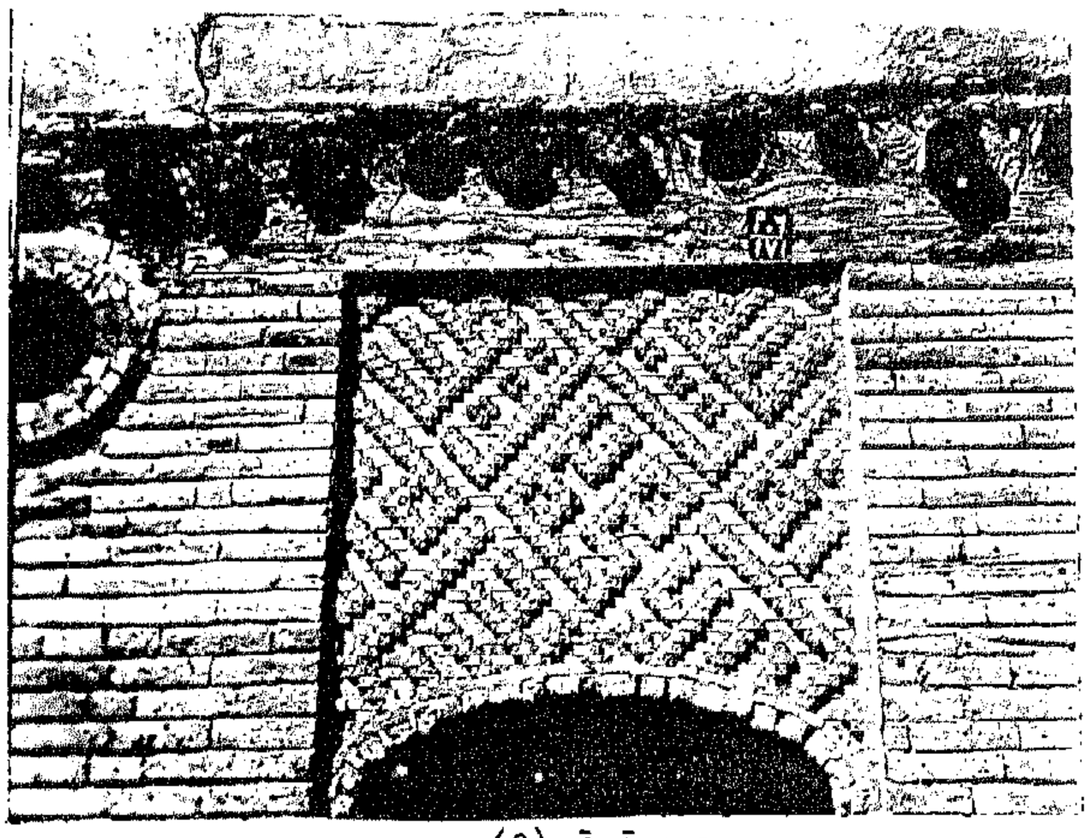

صورة رقم (٥)
كتيبة آجرية تعلو المدخل مزخرفة بزخارف كتابية

صورة رقم (٦)
باب خشبي مزخرف بزخارف نباتية

بأسلوب يحاكي الزخرفة (انظر الصور ٩، ١٠، ١١، ١٢).

وتغطي الواجهات الخشبية المزخرفة معظم اقسام البناء في الطابق الأول احياناً، فيما عدا دعامات الاركان للغرف، وتستند سقوف شرفات الطابق الأول الى اعمدة خشبية تتميز بتيجانها المزخرفة بموضوعات متعددة، وتغلف سقوف الشرفات او الغرف بالخشب ايضا ويتم رصف الالواح الخشبية باسلوب يستند التناظر والاختلاف في ان واحد، كما تختلف اشكال وحجوم

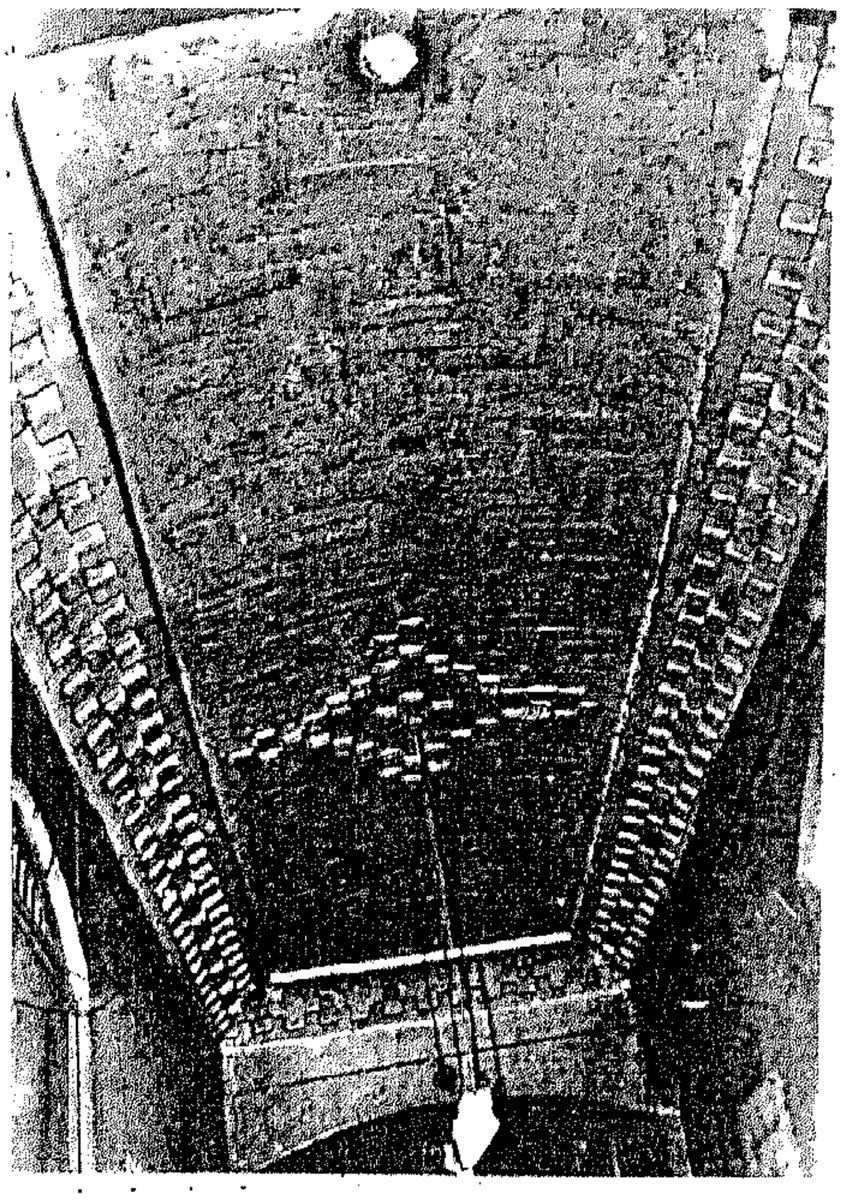

صورة رقم (٧)

سقف مجاز مقبى بالاجر المهندم والمرصوف بطريقة زخرفية

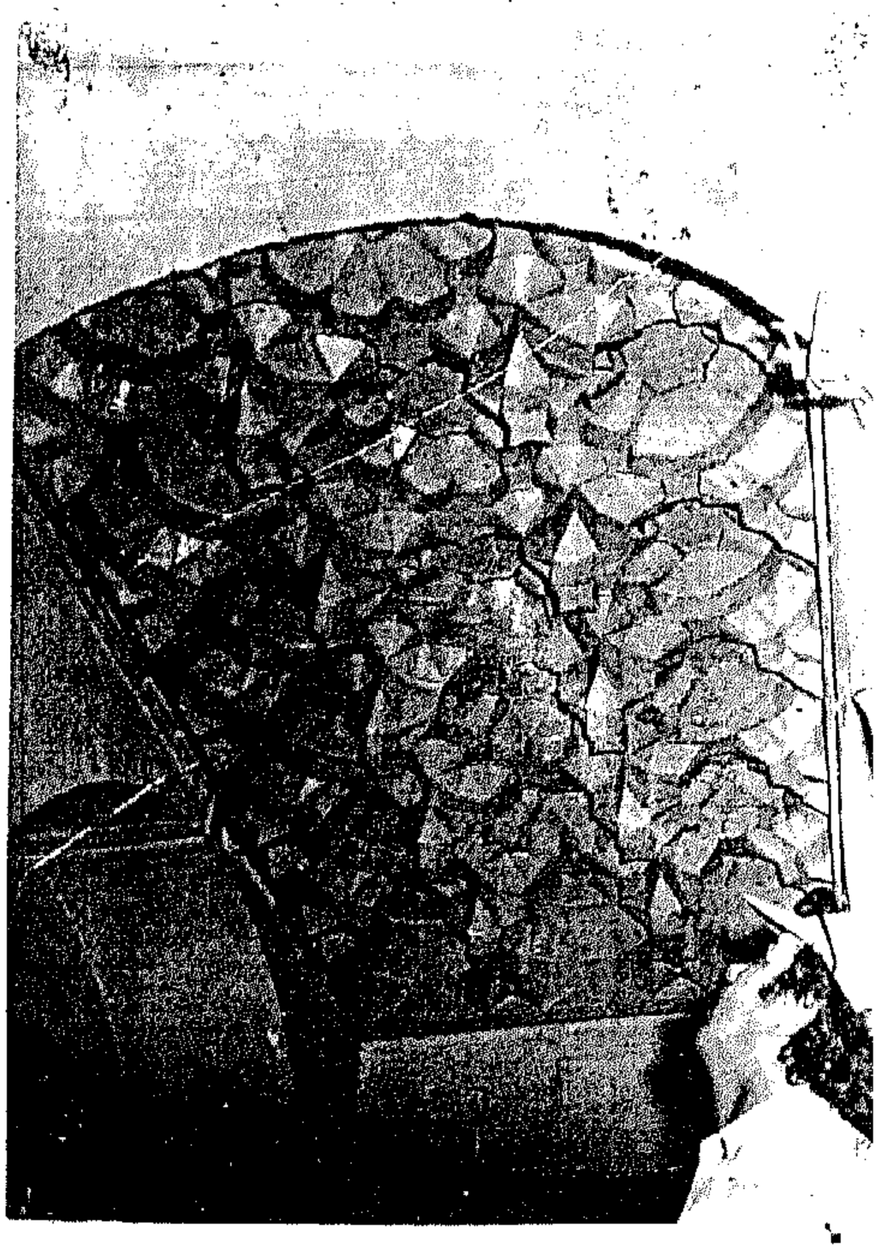

صورة رقم (٨)

سقف مجاز مقبى بزخرفة المقرنصات الآجرية

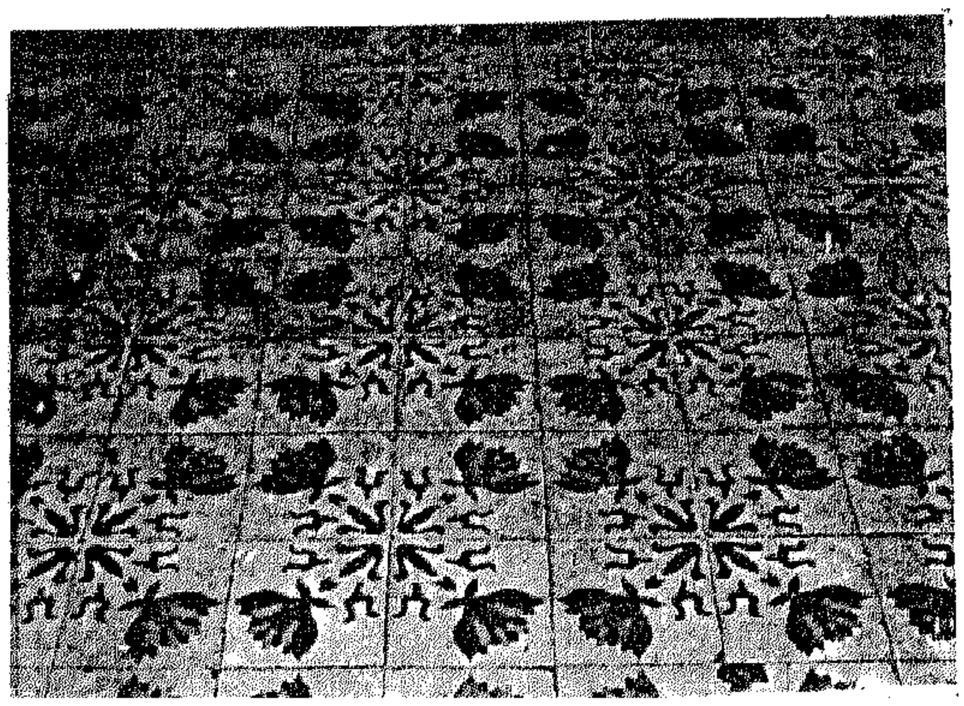

صورة رقم (٩)

تبليط الارضية ببلاطات مزخرفة

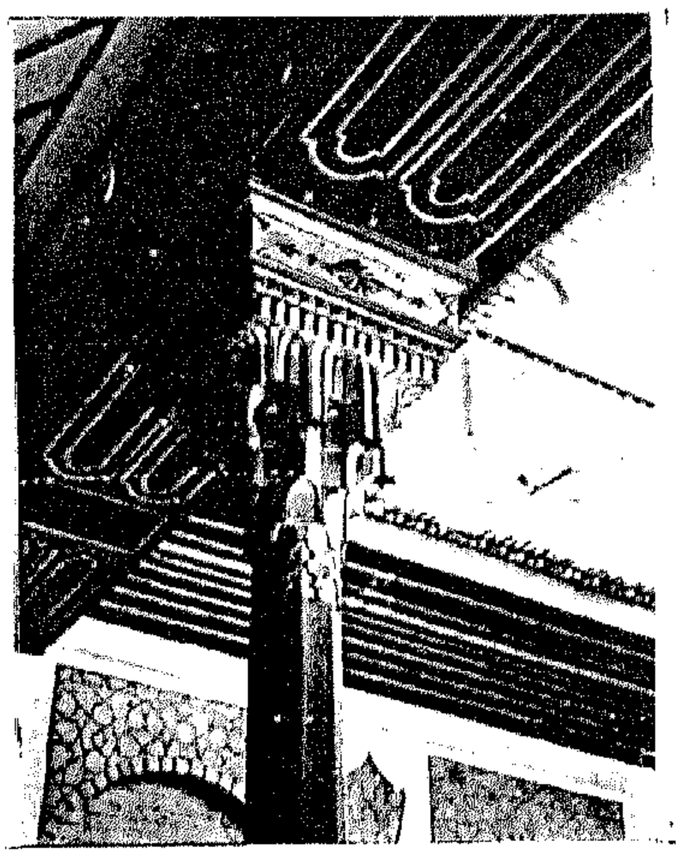

صورة رقم (١٠) اعمدة خشبية وواجهات آجرية مزخرفة

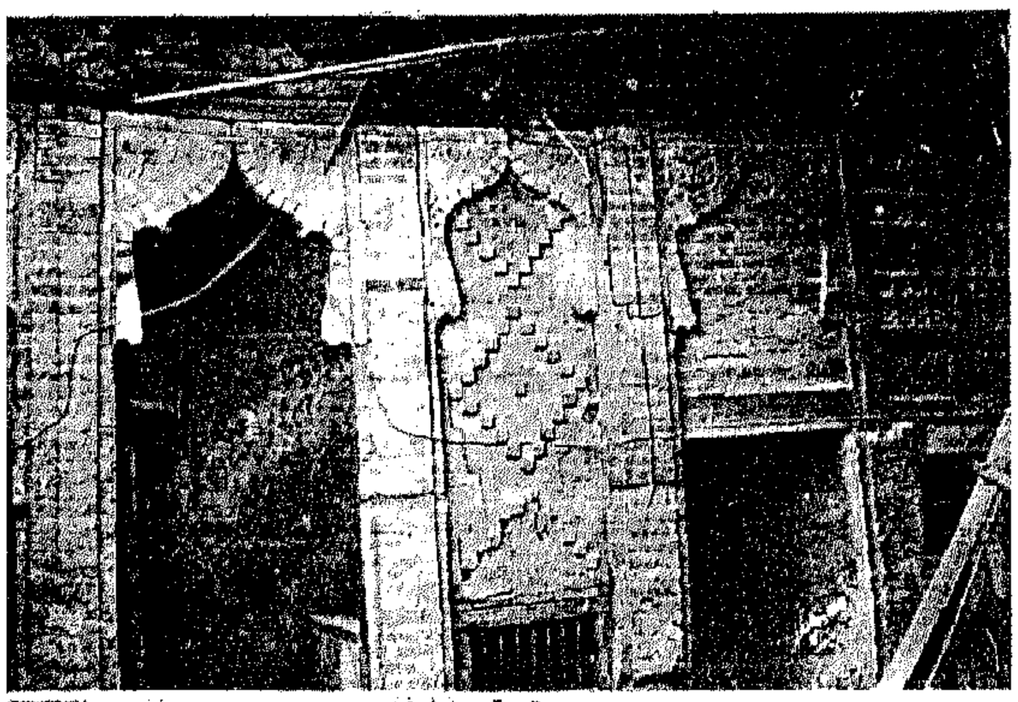

صورة رقم (١١)

احدى واجهات الساحة مزخرفة بزخارف آجرية تتمثل في الطاقات الصماء ومداخل الوحدات البنائية

صورة رقم (١٢)

واجهة الساحة مزخرفة بزخارف آجرية

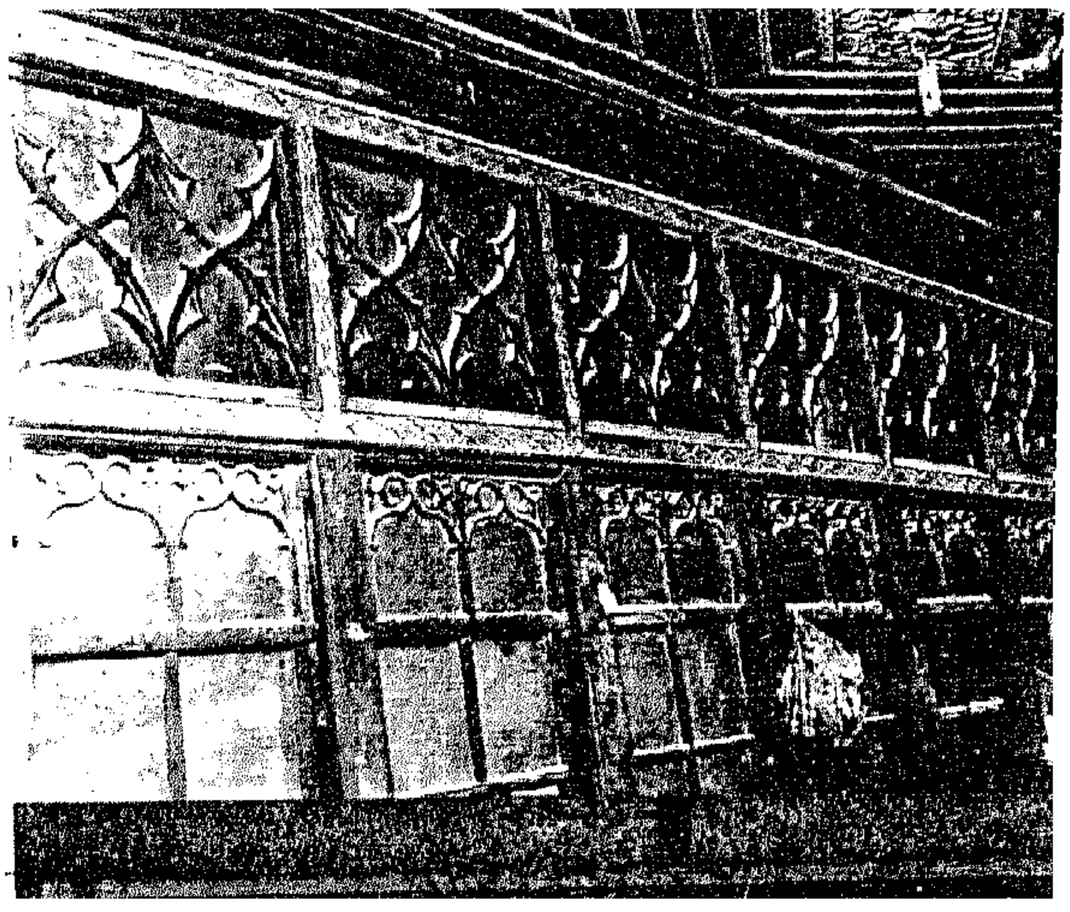

واجهه خشبيه مزخرفه وسقف خشبي تتوسطه عينه خشبية وزجاجية مزخرفة

القطع الخشبية مكونة افاريز ومجالات معينية متناظرة ومتنافرة بشكل يلفت الانتباه وتلتقي القطع الخشبية المرصوفة في الغالب بمركز يمعن الفنان في زخرفته وجماله بأضافة الوان الى اخشابه او تطعيمه احيانا بواجهات من المرايا او الاصداف، ويأخذ المركز هذا في رصف القطع الخشبية شكل المعين أويضاف فوقه شكل المعين غالبا ويسمى حرفيا بـ (العَيْنَه) او اشكال هندسية او نباتية محورة.

وهكذا يتدرج النظر من شكل زخرفي لآخر ومن لوحة فنيه

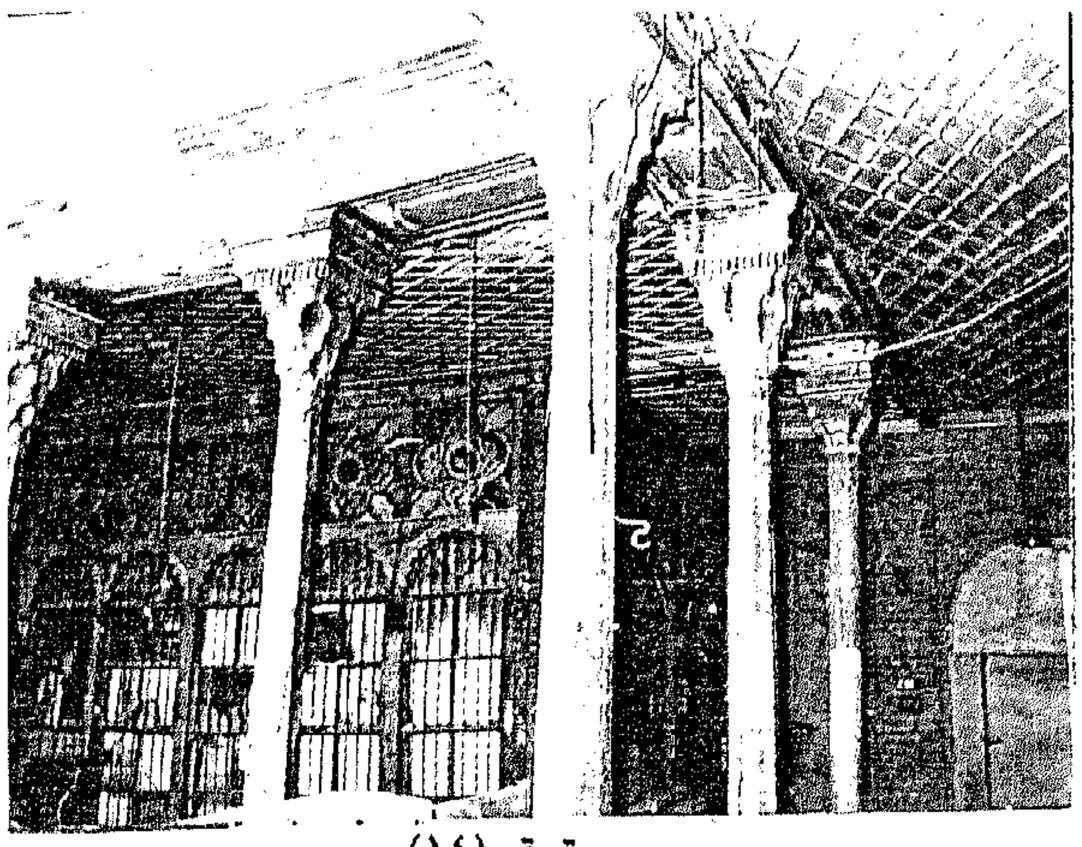

صورة رقم (١٤)

واجهة خشبية وسقوف واعمدة مزخرفة لوحدات الطابق الأول البنائية

صورة رقم (١٥)

سياج من قضبان حديدية عملت بطريقة زخرفية بديعة

رائعة لأخرى ابتداءاً من الاطارات الخشبية والآجرية للحدود الفاصلة بين الطابق الأرضي والأول، صوب الاعمدة وتيجانها وسقوف الشرفات المكشوفة والواجهات الخشبية للغرف والابواب واقواسها، وحتى نصل احيانا الى نهايات الطابق الأول حيث تصادفنا شرفات خشبية مسننة تشكل نهاية المبنى والفاصل بينه وبين سطح الدار، ولبعض شرفات الطابق الأول سياج (محجر) من قضبان حديدية طوعت في نسيج زخرفي يتآلف مع الاشكال الزخرفية العامة في البيت ولا يشابهها. (انظر الصور، ١٣، ١٤، ١٥).

ان الجانب الوظيفي من استخدام الخشب بكثرة في الطابق الأول من اقسام اخرى من المبنى يرجع للأسباب التالية:

١ ـ التخفيف من وزن المواد البنائية التقليدية التي تستخدم عادة في الطابق الارضي والسرداب.

٢ ـ الخشب مادة عازلة افضل من الآجر والجص لذلك يفيد شتاءاً خاصة أن غرف الطابق الاول تستخدم عادة في الشتاء لانها بعيدة عن ارضية البيت والسرداب اللذين يتميزان بالرطوبة والتعرض الى التيارات الهوائية مما يجعلهما غير مناسبين للمعيشة الشتوية ويكونان متميزين في الاستخدامات الصيفية للساكنين.

٣ ـ مطاوعة الخشب للتشكيلات الفنية والزخرفية.

٤ ـ قبول الخشب للطلاء بصورة افضل من مواد البناء الاخرى، وبالتالي توفر عامل مشجع للتشكيلات الفنية والزخرفية واستخدام الالوان.

وعندما تكون في داخل احدى غرف البيت، تنعكس علينا ظلال الاشكال الزخرفية للواجهات الخشبية او الابواب او الشبابيك، كما يضفي الزجاج الملون جاذبية اقوى ويبعث على الهدوء وكأنه يضفي رائحة الورد ولونه على مجموعة الموضوعات الزخرفية، انظر الصورة رقم ١٦.

وقد يستعيض الفنان التراثي عن الواجهات الخشبية لبعض الغرف بملء الجدران والسقوف برسومات ملونة تغلب عليها الموضوعات النباتية، ويحيطها بافاريز ويحددها بحقول ذات اشكال هندسية.

ولا تفارقنا الاشكال الزخرفية المحفورة على الآجر او التشكيلات الزخرفية والهندسية من خلال رصف الآجر، او التكوينات العمارية من خلال الاقواس والسقوف المقببة في المجالات المشيدة دون الطابق الارضي (السراديب) انظر الصورة (١٧).

ولأسباب تتعلق بطبيعة المناخ، وتوفر المادة الأولية اكثر المعمار التراثي من استخدام الحجر في بناء الدور التراثية في المنطقة الشمالية كما هو الحال في بيوت كركوك واربيل والموصل، ومنها الاعمدة وإطارات الشبابيك واسكفات الابواب . كما انه عوض عن تقليل الواجهات الخشبية المزخرفة بالاكثار من استخدام الرسوم الملونة، ولكن الاطار العام للموضوعات الزخرفية، لم يختلف كثيرا سواء كانت الموضوعات الزخرفية محفورة على الخشب او على الآجر او على الجص (انظر الصور ١٨، ١٩، ٢٠).

صورة رقم (١٦) واجهة خشبية لاحدى الغرف مزخرفة ومطعمة بقطع زجاجية ملونة

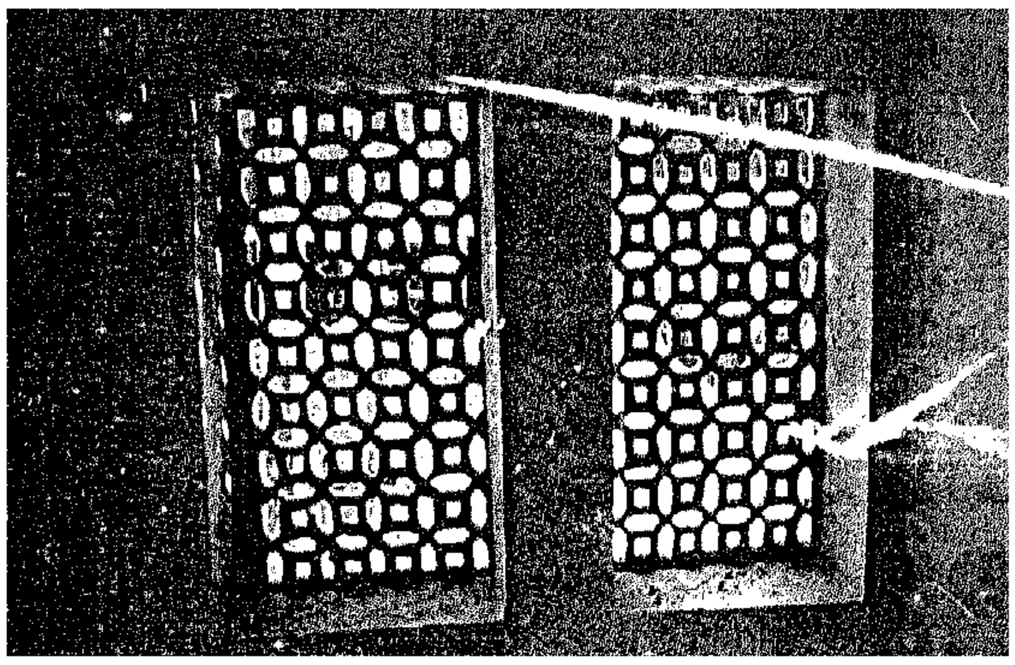

صورة رقم (١٦)
شبابيك ذات واجهات زخرفية منفذة على الحجر

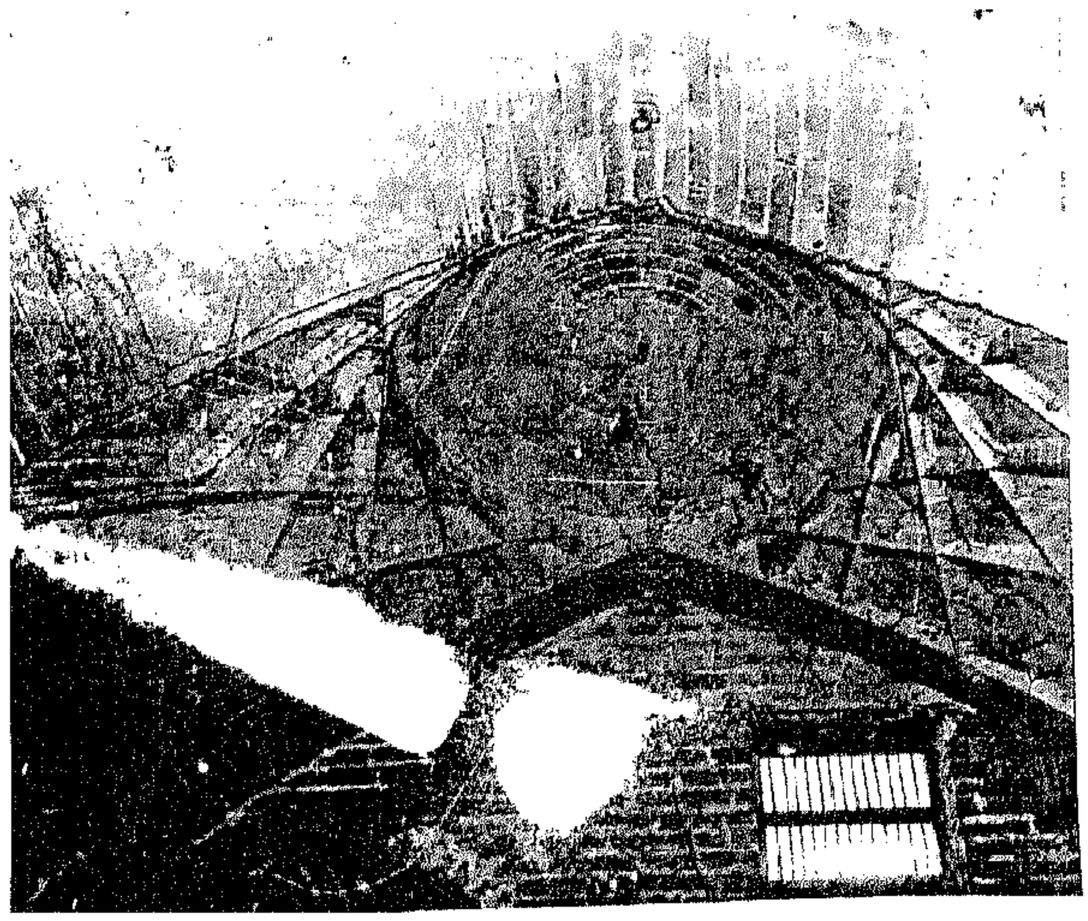

صورة رقم (١٧)
عقادة سقف سرداب من الآجر المهندم والمرصوف بطريقة زخرفية بديعة

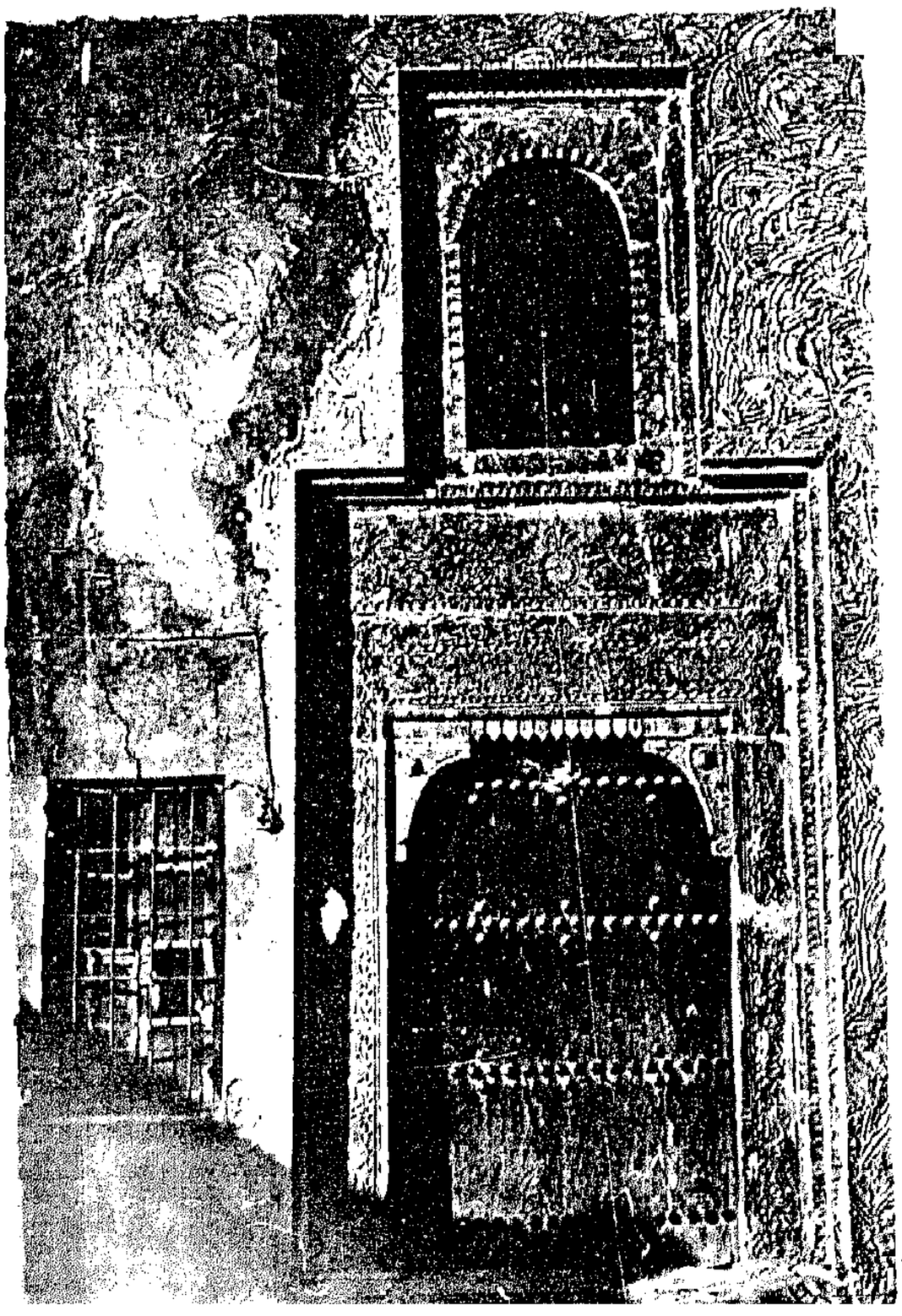

صورة رقم (١٨)
زخارف منفذة على الحجر لمداخل وشبابيك في المنطقة الشمالية

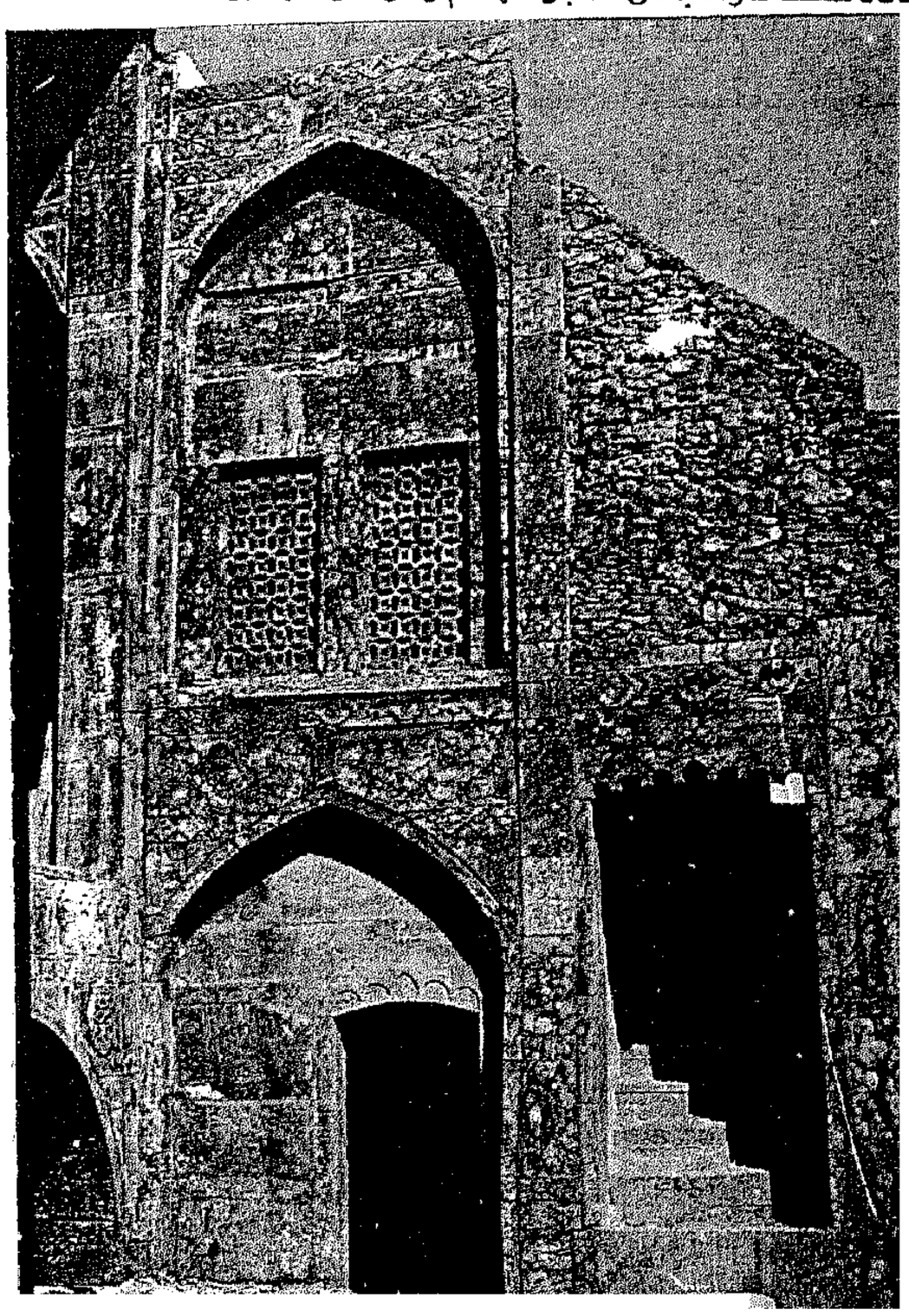

صورة رقم (٢٠) باب خشبي وواجهة مدخل وشباك ذات زخارف نفذت على مادة الحجر.